ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

العدد (6104) السنة الثالثة والعشرون - الاثنين (9) آذار 2026

www.almadasupplements.com

ذاكرة عراقية

أماكن من الذاكرة

مؤتمر الموسيقى العربية عام 1932 وتسجيلات محمد القبانجي الصوتية

د . حسين اسماعيل الاعظمي

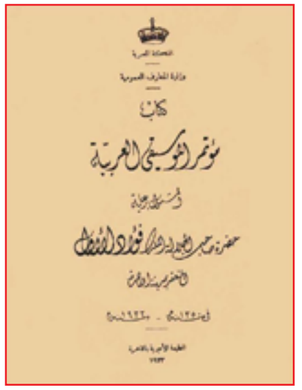

في بلدنا العراق كان مطرب المقام العراقي محمد عبد الرزاق القبانجي ، الرائد والمثير الأول للإبداعات المقامية ومنعطفاً جديداً في تاريخ التطور التراثي الموسيقي في العراق ، خاصة بعد تسجيلاته الصوتية في القاهرة ابان انعقاد المؤتمر الاول للموسيقى العربية عام ١٩٣٢ وما تلا ذلك ، فقد وضع هذا الفنان الكبير الأسس المتينة لإبداعاته الأدائية التي سار على هدْيها المؤدون اللاحقون من بعده ، الذين برز بعضهم بصورة تميُز فيها عن اقرانه من المغنين المقامين ، امثال المغنين (الاربعة الكبار) حسن خيوكة (١٩١٢ – ١٩٦٢) ويوسف عمر (١٩١٨ – ١٩٨٦) وناظم الغزالي (١٩٢١ – ١٩٦٣) وعبد الرحمن العزاوي (١٩٢٨ – ١٩٨٣) ، فضلا عن مغنين اخرين امثال عبد الهادي البياتي (١٩١١ – ١٩٧٤) وعبد الرحمن خضر (١٩٢٥ – ١٩٨٥) وحمزة السعداوي (١٩٣٤ – ١٩٩٥) وعبد الجبار العباسي (١٩٣٧ – .....) وعبد القادر النجار (١٩٣٩ – ٢٠٠٠)، وأعتبروا أبرز المبدعين من المغنين الذين ساروا على نهج الطريقة القبانجية والطرق الاخرى المعاصرة ، في التجديد والابداع في حقبة ما بعد مؤتمر القاهرة ١٩٣٢ الذي كان منعطفا كبيرا لتطور الموسيقى العربية بصورة عامة ..

المهم في الموضوع ، ان اجمل النتاجات الغنائية المقامية بمختلف انتماآتها الى الطرق الغنائية مثل الطريقة القندرجية × او الطريقة القبانجية × او غيرهما ، وكذلك بمختلف صفاتها واتجاهاتها الذوقية والجمالية كان من نتائجها تثبيت اقوى لشكل المقام العراقي ومضمونه في حياة الإنسان العراقي ، فالفرق في الفن الموسيقي هو في التفصيلات لا في النوع .. وفنون الموسيقى والغناء بما فيها الغناسيقى التراثية كالمقام العراقي ، واسطة للتعامل مع واقع الحياة ، أي ما ندعوه عادة بالحقيقة .. مغنون مبدعون

كما اوجدت تسجيلات المطرب محمد القبانجي في القاهرة عام ١٩٣٢ ابان انعقاد المؤتمر ومن بعده تسجيلات المبدعين من مغني منتصف القرن العشرين وبعد انتصافه ، املا وتواصلا مع تسجيل المقامات العراقية باصوات مؤدين مقاميين اعقبوهم كجيل آخر ، فان هذه التسجيلات ايضا قد اوجدت واعطت املا لمؤدين مغمورين مضى على تجربتهم فترة من الزمن دون تأثير يذكر ، فضلا عن مؤدين جدد ، لتنمية طموحاتهم والإجتهاد في السعي في تقديم نتاجاتهم المقامية للإذاعة والتلفزيون ... وهذه حقيقة إجتهد وإكتشفها كل المغنين المقاميين المبدعين كالاربعة الكبار وغيرهم بصورة طبيعية عفوية لإظهارها كمحصلة لهذه الحقبة بسبب نجاحهم المضطرد في تأديتهم للمقامات من حيث شكلها ومضمونها ×٣ التعبيري والبيني ، وكأجيال تالية ، فقد أتى على تأكيد هذه الحقيقة بالحماسة نفسها مؤدون كثيرون قلدوا استاذهم القبانجي وقلدوا بعدئذ الاربعة الكبار وعلى الاخص يوسف عمر في هذا المنحى بصورة تكاد ان تكون متطابقة وحاولوا تطوير حماستهم مثل حمزة السعداوي وعبد الرحيم الأعظمي وعبد الملك الطائي وحامد السعدي وخالد السامرائي وغيرهم ... هناك حقيقتان على كل حال يجب التركيز عليهما لما لهما من إتصال وثيق بنجاح وسلامة التسجيلات المقامية التي سجلت بصوت محمد القبانجي في مؤتمر القاهرة عام ١٩٣٢ من حيث شكلها ومضمونها واداؤها الفني بحقبة انتصاف القرن العشرين او بعدها ، ولعلهما تلقيان بعض النور على المشكلات التي يواجهها المؤدي المقامي المعاصر ..

فالحقيقة الأولى ، هي انه بالرغم من ظهور نتاجات ابداعية لمؤدي حقبة انتصاف القرن العشرين الذين اوقفتهم الابداعات الجديدة في تسجيلات محمد القبانجي في القاهرة ١٩٣٢ وبشُروا بمستقبل مرموق في الأداء المقامي ، فان المجال الذي تتيحه هذه النتاجات لنشر و إنتشار المقام العراقي خارج حدود المحلية كان قاصراً جداً مما خلا المطرب ناظم الغزالي الذي جعل من تسجيلات المقام العراقي والأغنية البغدادية مشروعا لسماعها من قبل كل جماهير الوطن العربي وخارج هذا الوطن الكبير ..!!

والحقيقة الثانية هي ان بعضا من تسجيلات هذه الحقبة التي تميَزت بالإبداع الادائي الفني ذات الأنتشار الواسع محليا وعربيا ، التي استفادت كثيرا من فحوى تسجيلات القاهرة المقامية ١٩٣٢ بصوت محمد القبانجي ، قد اشُرت بشكل واضح نسبة مرتفعة من تسجيلات الدرجة الأولى من حيث المستوى التقني والفني في الأداء ، ولابد من الاشارة الى ان هذه النتاجات الإبداعية وما تلاها من تسجيلات اخرى باصوات مؤدين آخرين ، قد رسمت وفعلت الكثير في سبيل بلورة وصياغة الشكل المقامي الحديث والمعاصر ...

ان ما يهمنا هنا على كل حال ، هو ليس سعة او حجم القاعدة الجماهيرية من المتلقين الذين استقطبتهم هذه التسجيلات فقط ، بل العدد الذي اجتذبته من صغار المؤدين الجدد اصحاب المواهب .. هذه التسجيلات التي اسهم فيها بإنتظام مغنون كثيرون من مختلف الحقب الزمنية والإتجاهات الجمالية مثل جميل الأعظمي (١٩٠٢ – ١٩٦٧) ومجيد رشيد (١٩١٥ – ١٩٨٢) وهاشم الرجب (١٩٢٠ – ٢٠٠٣) وشهاب الأعظمي (١٩١٨ – ١٩٩٧) وعبد الهادي البياتي وحسقيل قصاب (المتوفى ١٩٦٩) وسليم شبث (المتوفى في ٣١ / ١٠ / ١٩٨١) وعبد القادر حسون (١٩١٠ – ١٩٦٤) واحمد موسى (١٩٠٥ – ١٩٦٨/٨/٢٥) ورشيد الفضلي (١٩٠٤ – ١٩٦٩) وما تلاهم من مغنين ... ورغم الحالة التقليدية في تتابع هذه التسجيلات باصوات مؤديها المقلدين لغيرهم من السابقين ، بيَد أن من المرجح ايضا ان يعثر المستمع لهذه المقامات المسجلة على بعض من هذه التسجيلات التي تتسم بخصوصية ادائية في معظم نواحيها باصوات بعض المؤدين المبدعين الذين أنجزت نتاجاتهم عند انتصاف القرن وما بعد ذلك ...

من ناحية اخرى ، يجب ان لا يدهشنا إهتمام النقاد الموسيقيين بهذه التسجيلات المنجزة في هذه الحقبة التي تلت مؤتمر القاهرة ١٩٣٢، اذا اخذنا بنظر الإعتبار ان هذه التسجيلات كانت في المقدمة عرضة لحركة نقدية نشطت في نفس الحقبة الزمنية التي بلغت هدفها نوعا ما ... ان أثار هذا الاهتمام من قبل نقاد الموسيقى والنقاد المقامين مثل جلال الحنفي و عبد الوهاب بلال وهلال عاصم وعبد الوهاب الشيخلي ، تبدو محسوسة في وسائل الاعلام المسموعة والمقروءة والمرئية بعدئذ ، التي زخرت بها المجلات والجرائد اليومية في تلك الحقبة من انتصاف القرن ومازالت على هذا النشاط حتى وقتنا الراهن خاصة اهتمام الناقد الموسيقي عادل الهاشمي . ولا مجال للشك في كل الاحوال ، بتأثر الأداء المقامي الحديث والمعاصر بنواحيه كافة بنوعية وقوة هذا النقد .

ان هذه الحقيقة قد تكون ضئيلة الأهمية لو انها تُميَز فقط ، ظهور الاربعة المبدعون الكبار حسن خيوكة وناظم الغزالي ويوسف عمر وعبد الرحمن العزاوي الذين يُعدون ضمن افضل مغني حقبة ما بعد مؤتمر الموسيقى العربية في القاهرة عام ١٩٣٢ ... ولا يهمنا هنا اذا كان الإهتمام النقدي بمشكلات الأداء المقامي هو الذي ادى الى هذا التطور ، او ان الأثنين لم يكونا سوى انعكاس لحاجة المؤدين الى بعث الحياة في فنِهم الأدائي ، فأول ما يهمنا هو حقيقة كون العقد الخمسيني قد شهد مثل هذا التطور في الفكر و المفاهيم الفنية للأداء المقامي او بالأحرى في الغناسيقا العراقية على وجه العموم ، وان النتيجة الجليَة في أداء المقام العراقي في تسجيلات القاهرة عام ١٩٣٢ كانت انتعاشاً وتبديلاً وتطوراً في الكثير من التعابير الأدائية و التأمُلات ٤× الحسيَة والخيالات الحالمة ونحن نودع القرن العشرين ونستقبل القرن الواحد والعشرين ، فنحن نستطيع في الأعم الأغلب قياس مدى هذا التطور في

١ – الأساليب الأدائية وتقوية تماسك البنائية اللحنية لمسارات غناء المقام العراقي ..

٢ – الخروج عن طوق المحلية في التعبير المقامي وتنوعه ..

٣ – تبلور وتطور النواحي الفنية في الاداء والتعبير..

٤ – وضوح لفظ الكلمة المغناة ومحاولة التعبير عن معانيها الأدبية والفكرية ..

٥ – السهولة في التعبير والبناء اللحني ..

٦ – الاعداد الموسيقي الجديد في غناء المقام العراقي وهو ما سمي بـ (المقام الممنوع) ٥× ..

إن الواضح على كل حال ، هو ان المؤدين المقاميين في بغداد بل وحتى في محافظات الشمال كركوك والموصل واربيل والسليمانية ودهوك التي تمتاز بممارستها لهذه الألوان الأدائية المقامية ، قد اكتسبوا دفعاً جديدا وروحاً جديدةً واتجاهاً تعبيرياً خيالياً تأمُلياً بصورة نسبية نحو فنِهم الأدائي و لأول مرة في تاريخ هذا الأداء .

عن موقع (رابطة أعلماء الشام)

يونس بحري يتحدث عن نفسه قبل سنة من وفاته

د . ابراهيم خليل العلاف

بونس بحري السائح العراقي والصحفي والمذيع الاسطورة الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، كتبتُ أنا عنه ، وكتب عنه كثيرون ويبدو انه يجعلنا دوما ندور في فلكه ، ونتحدث عنه وسوف يظل العراقيون وغيرهم يتحدثون عنه الى ان يرث الله الارض وما عليها .

واليوم ١٠ حزيران – يونيو ٢٠١٩ ، أرسل لي صديق تسجيلا صوتيا نادرا بالفيديو سمعته عبر قناة اليوتيوب وفيه يتحدث المرحوم يونس بحري عن نفسه عبر ندوة في دار الفنان الرسام سعد الدين فاضل رضا في الباب الشرقي ببغداد يوم ١٢ اذار سنة ١٩٧٨ (أي قبل سنة من وفاته ببغداد سنة ١٩٧٩) ، وقد ادار الندوة مطرب المقام الاستاذ عبد القادر النجار . .

وفي هذا التسجيل ، سمعت انا شخصيا معلومات جديدة لم أسمع بها من قبل ، مع انني اعرف يونس بحري معرفة شخصية وقد جالسته مع عدد من الاصدقاء في الموصل قبل عدة سنوات من وفاته . والشي الجميل ان ابا لؤي واقصد هذا السائح والرحالة الموصلي العراقي صاحب التجارب العميقة في الحياة ، صديق الملوك والرؤساء والشيوخ والذي صدرت بحق اربعة أحكام بالاعدام ووقف متهما في المحكمة العسكرية العليا الخاصة – محكمة المهداوي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي اسقطت النظام الملكي ، تحدث بإنسيابية عن حياته في هذا اللقاء الذي قمت بتفريغه .

ومما قاله انه ولد في الموصل سنة ١٩٠٤ ، وان اسمه الحقيقي هو (يونس صالح الجبوري) ، وهو من عشيرة الجبور وقال ان والده كان (قائدا عسكريا) ، عمل مرافقا للسلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦–١٩٠٩ ، وانه بدأ دراسته الابتدائية في الموصل واكمل الاعدادية ، وذهب الى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية والتحق بالكلية الحربية – القسم البحري ومن هنا سمي بالبحري وتخرج ضابطا بحريا .

وقال انه بعد تخرجه ، سافر الى المانيا لاكمال دراسته سنة ١٩٢١ ، ودخل في ميونيخ المدرسة الحربية للخيالة وتخصص بعد ذلك بالخيالة . .

والشيء المهم الذي قاله المرحوم يونس بحري ، انه في ميونيخ تعرف على شاب المانى اسمه (ادولف هتلر) ونشأت بينهما صداقة ، وكان اللقاء في مشرب ببرة المانى ذكر اسمه يونس بحري وهو (مطعم برغل بيور كيلر) . .

وقال ان ادولف هتلر كان رساما يعيش من خلال رسوم بالفحم كان يرسمها للزبائن ، وكان فقيرا وكان يونس بحري يعطيه يوميا ما يعادل دينار عراقي واحد وانه هو من وجهه لرسم لوحات فنية ، ومن هنا نشأت بينهما صداقة وثيقة وبعد ان صعد هتلر بمساعدة باول فون هيندنبورغ القائد العسكري والسياسي الالماني والذي اصبح رئيسا لالمانيا ١٩٢٥–١٩٣٤ Paul von Hindenburg

واخذ هتلر الاغلبية في الرايخشتاغ وهو البرلمان الالماني وصار زعيما للرايخ حفظ ليونس بحري موقفه منه .

واضاف يونس بحري ، وهو يتحدث سنة ١٩٧٨ ، انه في سنة ١٩٣٦ ذهب الى برلين عندما انتدبته الحكومة العراقية للمشاركة في الالعاب الرياضية الاولمبية وترأس هو الوفد العراقي وهو كما نعرف سباح ماهر وعالمي سبق له ان عبر مضيق جبل طارق سباحة وتغلب على سباحين من (٣٦) دولة وحاز على جائزة تعادل ما قيمته (١٠٠٠) ليرة ذهب وكان قد اشترك في السباق بإسم بلده العراق واخذ البطولة واعترفت الحكومة العراقية بذلك رسميا .

ثم يتحدث السائح والصحفي يونس بحري عن علاقته بالصحافة فيكشف امورا جديدة من قبيل أن أول علاقته بالصحافة هي عمله في جريدة (الموصل) التي اعادت سلطات الاحتلال البريطاني اصدارها في الموصل بعد احتلالهم لها وكانت من قبل ومنذ سنة ١٨٨٥ تصدر ايام الدولة العثمانية بإسم (موصل) وباللغتين العربية والتركية .

وقال يونس بحري انه اشتغل في الصحافة منذ سنة ١٩١٨ اي بعد احتلال البريطانيين للموصل واعادة اصدارهم لجريدة (الموصل) ، وكان رئيس تحرير الجريدة الصحفي الموصلي المعروف (يونان عبو اليونان) بينما كان مصفف الحروف (نور الدين محمود) وهو نفسه الفريق الركن الذي شكل وزارة سنة ١٩٥٢ في بغداد . وكان يعمل في الجريدة شخص اسمه حمدي رضا .

وقال يونس بحري انه كان ينشر في جريدة (الاديب) الموصلية لصاحبها الصحفي الموصلي الكبير محي الدين ابو الخطاب .كما نشر في جريدة (فتى العراق) وذكر ان من كان يصدرها هو محمود الجلبي والصحيح انه ابراهيم الجلبي وان محمود المحامي هو ولده .

وقال انه عندما انتقل الى بغداد اصدر جريدة (العُقاب) وكانت جريدة مسائية لايل هي – كما قال اول جريدة مسائية تصدر في العراق – وكانت تصدر الساعة الخامسة من مساء كل يوم وقد راجت وتغلبت على خمس صحف صباحية لانها كانت تنشر الاخبار قبلها ب(١٤) ساعة على الاقل .

وحول علاقته بقراء المقام في الموصل ، تحدث عن الملا سعدي الموصلي ، وقال انه لايمتلك معلومات عنه لكنه يعرف الملا عثمان الموصلي الذي كان معروفا بفراسته ومعرفة متحدثه من لمسه ليده وقوله اهلا وسهلا مع ان البصير يعرف الاخرين بنبرة اصواتهم . وقال ان السيد احمد بن الكفغ كان قارئا للمقام في الموصل وكان اخوته ايضا بارعين بقراءة المقام وعرج على السيد حيدر جواد وكان ايضا قارئا للمقام وقال هو اليوم ١٩٧٨ استاذا للفقه في المدينة المنورة .

وفي بغداد – وعندما اصبح كما يقول المذيع الاول او مدير الاذاعة سنة ١٩٣٦ – عرف كل المطربين والمطربات في زمانه ومنهم صديقة الملاية وناظم الغزالي وعفيفة اسكندر ومحمد القبانجي وقال ان الاذاعة أي اذاعة بغداد في الصالحية كان تتكون من ثلاث غرف غرفة للسكرتارية وغرفة للتسجيل واستديو للاذاعة المباشرة يقصد البث المباشر وقال ان من كان يعمل في الاذاعة سلمان الصفواني ، ويحيى ثنيان ، واسماعيل حسن .

وتحدث عن انه كان رئيسا للجنة اختيار المطربين ، وكان ياسين باشا الهاشمي رئيسا للوزراء يحضر جلسات الاختبار وعندما يعجبه صوت المغني يصرخ (يونس قيدا اي اقبله) وعندما غنت صديقة الملاية اعجب بصوتها يونس بحري فصرخ قيدها فغضب ياسين باشا الهاشمي قائلا له اتأمرنني فرد يونس بحري : باشا مرة انتَ تأمرني ، ومرة أنا أمرك فضحكا .

ثم تحدث عن حادث مقتل الملك غازي في حادث انقلاب واصطدام سيارته وقال ان الانكليز هم من كان وراء ذلك ومن خلال العبد المرافق له في السيارة الذي ضربه على رأسه من الخلف فإنحرفت السيارة ، واصطدمت بالعمود الكهربائي وانه وجماعة معه في الموصل ومنهم حمدون الجماس ، وهشام الدباغ هجموا على القنصلية البريطانية وكانت في محلة النبي شيت بالموصل واسهموا في قتل القنصل مونك ميسن .

وقال ان الانكليز هددوا يونس بحري عندما كان في الاذاعة وانه اصطدم بهم وقال انه من اسهم في اشعال النار في القنصلية البريطانية وكان معه عبد المنعم الغلامي .

وقال يونس بحري انه طلب من ادولف هتلر ان يهدي الملك غازي ملك العراق الاسبق ١٩٣٣-١٩٣٩ اذاعة ، وقد نصبت الاذاعة في قصر الزهور .

واضاف انه كان وبعض من يعمل معه في الاذاعة يذهب يوميا الى اذاعة قصر الزهور بعد انتهاء عملهم في اذاعة بغداد ، وبعدها ينتقل مع الملك غازي الى قصر الملح وهناك يقضون ساعات للهو والمتعة والضحك على حد قوله .

ويقول ان هتلر اهدى الملك سيارة .

ثم يتحدث عن خطابه هو الذي كان يبتدأ تعليقاته من اذاعة برلين : « هنا برلين هنا برلين حي العرب" .. «لقد كانت بريطانيا تسمى سيدة البحار ولكن بعد هجوم الغواصات والطائرات البريطانية صارت تسمى سيدة قعر البحار » . وكان ذلك خلال سنوات الحرب ١٩٣٩و١٩٤٠ و ١٩٤١ وما بعد ذلك .

تحدث يونس بحري عن قصة تهريبه بطائرة المانية من بغداد بعد فشل ثورة مايس ١٩٤١ ومرافقة السفير الالماني كروبا له وما ألقاه في المطار الى ان وصل الى برلين وانه قال لكروبا لاتوجد لديه فلوس فأعطاه (١٥) دينارا .

وختم يونس بحري حديثة بالقول انه عاد الى العراق ، وانه أفلس يوما فذهب الى أحد تجار ووجوه الموصل في سوق الصفافير ببغداد وهو (هاشم الحاج يونس) ، وكان زميله في الابتدائية في الموصل وشكى له افلاسه فأعطاه (١٠٠) دينار فبكى فقال له هاشم الحاج يونس لماذا تبكي فرد أبكي من الفرح لانني كنت احلم بأن تعطيني عشرة دنانير واذا بك تعطيني (١٠٠) دينار فقال هاشم الحاج يونس ليونس بحري طالما انت في العراق تعال الى المكتب كل شهر ، وقد خصصت لك راتبا قدره (٣٠) دينار شهريا وقال يونس بحري ولسنوات طويلة وانا اذهب الى مكتب هاشم الحاج يونس ، واقبض راتبي ومن دون ان أؤدي أي عمل .

عن موقع (الكاردينيا)

السماوة في القرن العشرين

زيد الشهيد

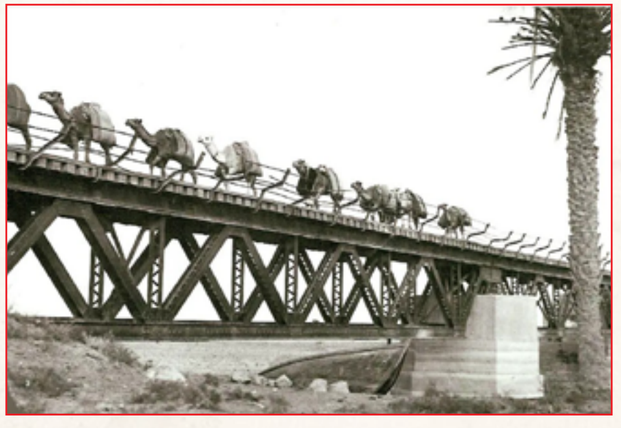

للمدن تواريخ .. وللتواريخ بصمات تأتي بها الذاكرات البشرية لتسكبها على الورق . وعندئذ يحصل الحفر على صوان الزمن فيتم الحفظ .. تستحيلُ الحكايات الشفاهية كتبا .. والكتب شاهدات على وجود مدن واحداث . فالمدن مكتبات تجمعها رفوف الجغرافية ، ويبوّبها أمين رصينٌ وحكيم نافذ البصيرة هو التاريخ .. إن الذي تحفره المدن على جسدها متمثلة بالأحياء والبيوت والشوارع ، بالأسواق والمحطات والمتنزّهات لهو الوشم الحي الذي يشير إلى وجود يعرض تفاصيله على العين البشرية القادمة من أجل التطلع والتمعن ، وقد تتقدم الى الرغبة في السكن فتستحيل لبنة من لبنات حياة المدينة . .

بسقوط بغداد ، المركز الاشعاعي الاول في العالم بالعلم والمعرفة والحضارة والرفاه والاستمتاع بالعيش وهناء الاقامة في عام ١٢٥٨ م على يد المغول وانطفاء شمسها الوضاءة المبهرة للبشرية في كل اصقاع العالم وانتهاء حكم بني العباس دخل العراق نفق العتمة الذي سيدوم اكثر من اربع مائة عام . نفق كانت ابتداءاته تُظهر جيوشا كالجراد الأكول يتمثل بالمغول والتتر ووحشية قبائل الخروف الاسود " قره قوينلو " والخروف الابيض " الاق قوينلو " مدفوعين بثراهة جنونية وأطماع لا حدود لها تتجاوز سعة الحلم .. تقتحم بغداد فيعاث بجمالها تشويها ، وبكبريائها تهشيما ... يأتي الغزاة من احراش وسط آسيا الموبوءة بالجهل والبدائية ليفسدوا بساتين بغداد ويلوثوا دجلتها العذب . يتحولون الى الفرات فيشبعون أمواهه باد ران اجسادهم ؛ حتى إذا ظهر بنو عثمان وهم يرفعون لواء الاسلام ظاهرا ويدعون الى تعظيم الدين بهتانا خفقت بيارق الظلام وتصيّر التاريخ من قرون ستكون أحلك ما يمر بها جبروتهم حيث التهموا الاعوام مدفوعين بروح التوسع ، ومفعمين بشعور انهم القادرين على الوصول الى آية جغرافية يرتأونها ، وأي موقع يثير انتباههم .. وكان لهم ما أرادوا .

وكان الجزءُ العظيم من ارادتهم ضم العراق بنهريه العذبين ، وسهوله الغنّاء ، واراضيه المتباهية بخصوبتها ، ونتاجه الذي لا تضاهيه أرض وفرةً وكثرة ... فكان قدر بغداد أن تكون بقرة حلوب لآل عثمان بسلاطينهم ، وأمرائهم ، ومماليكهم . ويتلقى ظهر العراق لفحَ سياط البغض والعنجهية أنى شكى ، وأنى توجع وأن . فعمّ الخراب ، وساد العبث ، وانكفأ أهل العراق على وجوههم يكدون ويكدحون من أجل تمتّع سلاطين بني عثمان بقيانهم وغلمانهم ... ولم تبرَغ شمس انتشائه من البرائن النابتة كالشوك والمتغلغلة كالجذور المتعفنة الا مع ابتداءات القرن العشرين .

ومع تلك الابتداءات التي دعت العراقي الى رفع رأسه تبين انه لم يكن إلا قيئا وعبدا جثموا على اجياله السالفة بكذب وزيف ومراءات انطلت على الكثيرين واصبحت عُرفاً يُعاش ؛ ليس من اليسر التخلص منه ونزعه من الجسد العليل ... رفع العراقي رأسه فوجد العالم أمامه يزهو ويكد ويحث الخطى لقطف ثمار النور بنفس يحدوها الكبرياء ، ويصاحبها الجلال فتهتف بالعظمة . وأكتشف أنه من أجل اللحاق به أن يعدو عدو الغزال ويصبر صبر جمل الصحراء . فكيف يعدو وهو العليل الخاوي المنهك ؟ وكيف يصبر هو الذي نضب من أية قطرة عرق تعيد له عزمه على البقاء بهويته الانسانية ؟!

وإذ تبنى المدن على ضفاف الانهار بناء على حاجة يومية للماء ؛ وإذ يتحكم العامل الاقتصادي في تشكل المدن وتنشل الحياة بناء على رغبة في الديمومة والتواصل . فتتسع هاتيه المدن أو تتضاءل او تبقى على كينونتها أن وجدت .. وبتناثر المدن وتباعدها ينمو الارتباط على جغرافية الوطن

إذاً الماء والاقتصاد هما ما يلعبا في ولادة المدن واستمراريتها في صيرورة البقاء .. إنّ تنامي الاواصر المحكومة بالتجانس والتعامل على اساس حسن النية هما اللذان يؤشران مستقبلا يبشر بالرضا ويؤمىء بحياة اكثر هدوءا وأقل توترا .

المتنبي قال« تركنا من وراء العيس نجداً // ونكبنا السماوة والعراقا » .. وسماوة المتنبي كانت البادية الممتدة من ارض العراق الغربية الجنوبية دخولاً الى ارض الشام وباديتها حيث لا حدود جغرافية تفصل هاتيك البادية كما هو الآن فتجعل بادية السماوة مقسمة بين بلاد العراق وبلاد سوريا حسب تقسيم اتفاقية (سايكس – بيكو) في العام ١٩١٦ . أما السماوة الحالية التي تمثل مركز محافظة المثنى فهي مدينة استبشرت بالبادية الام واستعذبت تقمص اسمها .. فصار الاثنان رديفين ، اورد ذكرها المتنبي في صورتين شعريتين منفصلتين :

سلي عن سيرتي فرسي وسيفي ورمحي والهلهَعةَ الدِّفاقاً
تركنا من وراء العيس نجداً ونكبنا السماوة والعراقا

كذلك اورد اسم " السماوة " في رائيته التي يصف فيها تدمير سيف الدولة للقبائل العدوة التي حاربها :

يرونَ الموتَ قدّاما وخلفاً فيختارون والموتُ اضطرارُ
اذا سلك السماوة غيرُ هاد فقتلاهم لعينيه مَنارُ

وكانت في ما مضى وقبل قرون ((أرض مستوية لا حجر فيها)) على حد تدوين ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) الذي كتبه في العام ١٤٢٩ ميلادي ؛ وهي ((فلك البروج ، السامية العالية)) كما اوردها المنجد ؛ وكانت قبل الاسلام تُعرف بـ " أليس " ، واتخذتها الجيوش العربية التي تولت نشر الاسلام باتجاه الشرق والشمال محطة استراحة وتجمع المقاتلين من القبائل العربية في حريهم مع الفرس ؛ وكانت يوم كان اسمها " أليس " مقاما لثنى ابن حارثة الشيباني " في دعوته القبائل للجهاد " من أجل نشر الاسلام كما أورد ذلك البلاذري .

وفي العهد العثماني أشير اليها بوثيقة مؤرخة في العام ١٤٩٤م تصفها بأنها قرية زراعية تقع على شط العطشان وهو نهر الفرات الأصلي الذي تحول عنها عام ١٧٠٠ إلى مجراه الحالي اثر فيضان كبير غمر المنطقة .. كما أنها خضعت لسلطة الصفويين عام ١٦٦٢م في زمن الشاه عباس الأول وعززوا حمايتهم العسكرية فيها عام ١٦٢٥ م بعد انتصارهم على بكر صوباش .. وقد اصبحت في فترة من حكم بني عثمان مركز محافظة تتبع لها الديوانية . كان ذلك قبل الفرمان السلطاني بتقسيم العراق إلى ثلاث سناجق إذ تم بموجبه الغاء المحافظات واعتبارها منطقة تابعة إلى سنجق البصره ... وفي عام ١٧٥٨ م مر بها الرحالة الطبيب البريطاني ايفز وجماعته في طريقهم من البصرة إلى الحلة فمر بنهر " الكريم " الحالي وكان المجرى الأساسي الجنوبي للفرات حينذاك فوجدها بلدة مسوّرة بيوتها من طين . كما ذكرها الرحالة الألماني (نيبور) في العام ١٧٦٥ وهو في طريقه إلى النجف الأشرف فبغداد مشيراً إلى أنها مدينة مبنية من الطين وفي باديتها ملح كثير . وتنتشر في المنطقة المواقع الأثرية إذ أن عددها قد بلغ ٣٣ موقعا اثريا تتراوح أزمانها بين ٣٢٠٠ ق.م إلى العصور الإسلامية الحديثة .

والسماوة المدينة التي تأخذ موقعها الحالي وتتوسع كما يتوسع نبات الفطر ليست هي السماوة الأم .. فالأم كانت يوما على نهر العطشان الذي يقع غرب المدينة الحالية ؛ وهذا النهر شأنه شأن الأنهر الفرعية معرضة للضمور والجفاف قد تواري عن الخارطة وصار اسماً إذا جيء ذكره وفعت السبابة لتشير الى جهة الجنوب ، إلى حيث ارض جرداء تتناثر عليها بيوتات ريفية ويتوزع على مبعدة منها مزارع شاحبة تتوخى حضور الماء مرفوعا بجرادل من آبار تُحفر لفترة لا تطول ؛ ثم تنضب وتجف مع مرور الاعوام ليباشر بحفر آخر . والمدن كما اشرنا تتشكل – كأحد عناصر التشكل – على اساس وفرةِ المياه ؛ وخصوصاً حين تكون المياه انهاراً . والاكثر أهمية فيما تقع على مفترق طرق ؛ أي تربط مواقع جغرافية يسكنها بشر في كيانات قروية أو تجمعات عائلية تحترف الزراعة وتربية الثروة الحيوانية . وبذلك اتخذت السماوة وجودها الحالي على ضفة الفرات .. وصار لها هوية ، واسما اداريا " قضاء " تابعاً للواء الديوانية ، يرأسه ويديره قائمقام حتى العام ١٩٦٩ عندما صدر قرار من الحكومة المركزية باستحداث محافظة تكون " السماوة " مركزا ، تلتحق بها اقضية ونواحي .

أماكن وشخوص .. من الذاكرة

باسم عبد الحميد حمودي

في مدخل إعدادية الكرخ للبنين ينتصب مبنى مهيب هو مرقد رجل الدين المتصوف حبيب العجمي، وقد كان هذا المرقد متواضعاً في الأيام الخوالي، أيام خمسينات القرن الماضي. في سنوات الأربعينات من القرن الماضي كانت تقع الى شماله الشرقي على مسافة مئتي متر تقريباً قيصرية كبيرة تحوي عربات السكة الحديد التي تبدأ من هذا المكان لتنقل الراغبين من الزوار بـ(الكاريات) من مجاور مرقد الولي الصالح (حبيب العجمي) الى ساحة باب الدروازة في الكاظمية لزيارة مرقدي الإمامين الكاظمين عليهما السلام. كان (الكاري) الواحد عبارة عن عربة تسحبها الخيول على السكة التي تمتد مخترقة محلات الكرخ القديمة وباب الكاظم، مجتازة منطقتي الشالجية والعطيفية حتى دخول الكاظمية. كان الكاري الواحد (بالكاف الأعجمية) مكوناً من طابقين وثمن الركوب (أنة) واحدة و(الأنة) قيمتها أربعة فلوس، فإذا اشتد وقت الزيارة الكاظمية يومي الخميس والسبت، أخرجت إدارة (الترام–الكاريات) عربة بخارية تسمى (الطرزينة) لتسحب عربتي ترام او ثلاثة توخياً لاستيعاب زخم الزوار وللإسراع في إيصالهم. كان طريق السكة يمر بمحلات رأس الجسر والسوق الجديد والست نفيسة والتكارتة والسوامرة والعيثاويين والجعيفر ليدخل باب الكاظم حيث بساتين العطيفية. أسس الترام الوالي العثماني المصلح مدحت باشا عام ١٨٧١ وتم رفعه عام ١٩٤٧ من قبل وزارة السيد محمد الصدر، وتم تبليط الشارع من قبل شركة (ومبي) الإنكليزية تبليطا حديثاً، كانت فتيات بغداد يزرن مسجد حبيب العجمي مغرب كل خميس ويشعلن الشموع طلباً للمراد وهن يغنين: جينا نزورك ياحبيب العجمي شمعة ابطولك ياحبيب العجمي فإذا نالت الفتاة المراد جاءت مع بعلها او خطيبها وملأت حائط الولي الصالح حناء شاكرة وفرحة. فرس ياقو في أقلوش اشتهر الطبيب الشعبي ياقو حكيم في مدينة (القوش) ببراعته في الطب، ويوم أصيبت زوجة أمير اليزيدية سعيد بك عام ١٩٣١ بإطلاقتين ناريتين من قبل خادم الأمير خطأ عالجها ياقو حكيم وساعد في شفائها. يقول الرواة إن الأمير سعيد طلب من ياقو حكيم أن يطلب منه ما يشاء جائزة لعمله، فتردد الطبيب الشعبي حتى ألحّ عليه الأمير، فطلب منه فرسه الشهيرة. ورغم حب الأمير لفرسه فقد أهداها للحكيم مع عدّتها الكاملة وعباءة فاخرة أيضاً، ويوم قدم الملك غازي الى أقلوش كانت فرس ياقو تسابق سيارته؛ توقفت سيارة الملك غازي الذي كان يقصد دير الربان هرمز وطلب من ياقو أن يمتطي فرسه لإكمال الطريق، نزل ياقو عن الفرس وركبها الملك وركبَ ياقو بسيارة الملك حتى باب الدير. نزل الملك عن الفرس شاكراً(ياقو) الذي ألحّ عليه بقبول الفرس هدية، لكن الملك غازي اكتفى بشكره وهو يتأمل تلك الفرس الجميلة.

الدكتور نوري مصطفى بهجت إنه تلقى رسالة تلفونية غاضبة وهو في عيادته في البتاويين تأمره بالتوجه الى مستشفى السلام مع قنانيي دم كافية؛ كان ذلك مساء يوم السابع عشر من تشرين الثاني ١٩٥٩، ويقول القصاب بعد هذا إن الشارع كان هائجا، وإنه تلقى الأمر دون أن يعلم مصدره وأسرع الى مستشفى السلام وكان أول من دخله من الأطباء ويقول: (اجتزت جمعاً كبيراً من الناس كانوا يتباكون ويصرخون. أسرعت إلى قاعة العمليات في الطابق العلوي حيث وجدت عبد الكريم قاسم تغطيه الدماء، وكان يتكلم بحماسة وكأنه يخطب بين الجماهير.. ووصل وزير الصحة بعدي ووجّه كلامه الى بعض الأطباء السوفييت في القاعة، وأمرهم بالخروج ثم قال لي أنت المسؤول الآن.. افحصه وقدم تقريرك عنه، أجبته بعد الفحص السريع أن هناك طلقاً نارياً في الإبط الأيسر وآخر في العضد الأيسر، وآخر اجتاز الكتف اليسرى ورابعاً في جوار الصدر وحالته العامة مستقرة، ثم بدأت بإجراء العملية لاستخراج الطلقة من الإبط تحت المخدر الموضعي). كان الوزير الشوّاف محمد هو الأخ الشقيق للعقيد عبد الوهاب الشواف الذي تزعم حركة انقلابية في الموصل في ٨–آذار ١٩٥٩ أدت الى مقتله وإعدام الضباط الذين تعاونوا معه، لكن محمد الشواف ظل على مؤازرته لرئيس الوزراء، وقد استعان بصديقه وابن طرفه بالكرخ الجراح خالد القصاب لتقنه به، والقصاب هو ابن السيد عبد الله القصاب رئيس المجلس النيابي في العهد الملكي الذي استقال احتجاجاً على معاهدة بورتسموث التي عقدت مع بريطانيا عام ٤٧. يصف القصاب خالد عمله في جراحة الزعيم ونجاحه في خياطة الجروح ويقول في رسالته لصديقه الرسام الطبيب نوري مصطفى بهجت: (بعد انتهائي من عمليتي للزعيم ذهبت لإسعاف مرافق الرئيس قاسم الجنابي الذي كان وجهه ملطخاً بالدم وكان يردد «قلنا له لا تعدم الضباط لكنه لم يسمعنا" وكان الجنابي رجلاً عالي الخلق فاضلاً).

انتهى كلام خالد القصاب الذي ظل يعود الزعيم مع مجموعة من الأطباء العراقيين حتى خروجه من ذلك المستشفى الذي يسمى اليوم (مستشفى الشيخ زايد) لعناية دولة الإمارات العربية ببنايته ومواده اللوجستية وتشغيل بعض أطبائها فيه. باسم عبد الحميد حمودي /حبيب العجمي والكاريات في مدخل إعدادية الكرخ للبنين ينتصب مبنى مهيب هو مرقد رجل الدين المتصوف حبيب العجمي، وقد كان هذا المرقد متواضعاً في الأيام الخوالي، أيام خمسينات القرن الماضي. في سنوات الأربعينات من القرن الماضي كانت تقع الى شماله الشرقي على مسافة مئتي متر تقريباً قيصرية كبيرة تحوي عربات السكة الحديد التي تبدأ من هذا المكان لتنقل الراغبين من الزوار بـ(الكاريات) من مجاور مرقد الولي الصالح (حبيب العجمي) الى ساحة باب الدروازة في الكاظمية لزيارة مرقدي الإمامين الكاظمين عليهما السلام. كان (الكاري) الواحد عبارة عن عربة تسحبها الخيول على السكة التي تمتد مخترقة محلات الكرخ القديمة وباب الكاظم، مجتازة منطقتي الشالجية والعطيفية حتى دخول الكاظمية. كان الكاري الواحد (بالكاف الأعجمية) مكوناً من طابقين وثمن الركوب (أنة) واحدة و(الأنة) قيمتها أربعة فلوس، فإذا اشتد وقت الزيارة الكاظمية يومي الخميس والسبت، أخرجت إدارة (الترام–الكاريات) عربة بخارية تسمى (الطرزينة) لتسحب عربتي ترام او ثلاثة توخياً لاستيعاب زخم الزوار وللإسراع في إيصالهم. كان طريق السكة يمر بمحلات رأس الجسر والسوق الجديد والست نفيسة والتكارتة والسوامرة والعيثاويين والجعيفر ليدخل باب الكاظم حيث بساتين العطيفية. أسس الترام الوالي العثماني المصلح مدحت باشا عام ١٨٧١ وتم رفعه عام ١٩٤٧ من قبل وزارة السيد محمد الصدر، وتم تبليط الشارع من قبل شركة (ومبي) الإنكليزية تبليطا حديثاً، كانت فتيات بغداد يزرن مسجد حبيب العجمي مغرب كل خميس ويشعلن الشموع طلباً للمراد وهن يغنين: جينا نزورك ياحبيب العجمي شمعة ابطولك ياحبيب العجمي فإذا نالت الفتاة المراد جاءت مع بعلها او خطيبها وملأت حائط الولي الصالح حناء شاكرة وفرحة. فرس ياقو في أقلوش اشتهر الطبيب الشعبي ياقو حكيم في مدينة (القوش) ببراعته في الطب، ويوم أصيبت زوجة أمير اليزيدية سعيد بك عام ١٩٣١ بإطلاقتين ناريتين من قبل خادم الأمير خطأ عالجها ياقو حكيم وساعد في شفائها. يقول الرواة إن الأمير سعيد طلب من ياقو حكيم أن يطلب منه ما يشاء جائزة لعمله، فتردد الطبيب الشعبي حتى ألحّ عليه الأمير، فطلب منه فرسه الشهيرة. ورغم حب الأمير لفرسه فقد أهداها للحكيم مع عدّتها الكاملة وعباءة فاخرة أيضاً، ويوم قدم الملك غازي الى أقلوش كانت فرس ياقو تسابق سيارته؛ توقفت سيارة الملك غازي الذي كان يقصد دير الربان هرمز وطلب من ياقو أن يمتطي فرسه لإكمال الطريق، نزل ياقو عن الفرس وركبها الملك وركبَ ياقو بسيارة الملك حتى باب الدير. نزل الملك عن الفرس شاكراً(ياقو) الذي ألحّ عليه بقبول الفرس هدية، لكن الملك غازي اكتفى بشكره وهو يتأمل تلك الفرس الجميلة.

في ذكرى رحيله في 16 اذار 1945

معروف الرصافي شاعر "مجهول"

إبراهيم العريس

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانبا فالخير ألا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا أبداً وإلا تندموا
إن السياسة سرها لو تعلمون مطلسم
وإذا أفضتم في المباح من الحديث فجمجموا
والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا
ن شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم

قصيدة "الشاعر المجهول"

تعتبر هذه القصيدة، و عنوانها الذي عرفت به هو «الحرية في سياسة المستعمرين"، عادة، واحدة من أجمل وأقوى قصائد الشاعر العراقي معروف الرصافي. فمَن معروف الرصافي؟ فلنبدأ هنا على الأقل بقراءة هذا التعريف المنقول عن صحيفة مهجرية: "إن معروف الرصافي توقيع مستعار لشاعر عربي عظيم موطنه غير بغداد التي يتظاهر بالانتساب إليها على صفحات الجرائد، إذ يستحيل أن ينبغ في العراق المتأخر في أدبه وعلومه هذه الأيام، وفي استتباب الاستبداد الحميدي وتضييق الخناق على المفكرين الأحرار، مثل هذا الشاعر الحر الذي يختلف في جرأته وسعة أفقه، فضلاً عن ديباجته البديعة". هذا الكلام الذي كتبه الصحافي اللبناني نعوم لبكي في صحيفة "المناظر" التي كان يصدرها في نيويورك، أثار، يومها غضب المفكر محمد كرد علي، بحسبما يروي لنا الكاتب العراقي نجدت فتحي صفوت في كتاب وضعه عن أعمال الرصافي المجهولة، فانبرى- أي كرد علي- للرد على لبكي في سلسلة مقالات نشرها في جريدة "المؤيد" القاهرية، وكانت غاية كرد علي من ردوده أن يثبت أن معروف الرصافي هو اسم حقيقي لشاعر بغدادي معاصر.

حس وطني مثير للحيرة

في ذلك الحين كان الرصافي لا يزال في بداياته، ولكن من الواضح أن تلك البدايات كانت من القوة والزخم بحيث حيرت المتابعين أمام شعر ناضج يحمل توقيع "شخص مجهول". وكان مما زاد الحيرة أن قصائد الرصافي امتلأت بالحس الوطني وكانت منها "تنبعث نفحات الحرية ويتطاير من جوانبها شرار الوطنية" بحسب تعبير الأخطل الصغير. والرصافي الذي فاجأ الأوساط الأدبية العربية إلى هذا الحد كان ولد ببغداد في عام ١٨٧٥ وتلقى علومه الابتدائية فيها كواحد من حواري العالم الشيخ محمود شكري الألوسي الذي لفته ذكاء تلميذه ووطنيته وراح يوجهه لكتابة الشعر على النمط الكلاسيكي. وبالفعل ما إن أصبح معروف الرصافي في سن الشباب حتى راح يكتب الشعر، بكثرة وينشره في العديد من الصحف العربية. وكانت تلك المرحلة هي التي اكتشفه فيها المتابعون العرب، واكتشفوا أن بإمكان العراق، حقاً، أن يطلع شعراء كبارا، وهو ما لم يكف العراق عن فعله منذ ذلك الحين، بحيث كان الرصافي رائداً حقيقياً لحداثة شعرية تواصلت منذ أيامه لتصل إلى ذروتها، لاحقاً، مع بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وغيرهم مروراً طبعاً بمحمد مهدي الجواهري ومحمد صالح بحر العلوم ناهيك بخاتمة كبار الكلاسيكيين أحمد الصافي النجفي.

الصحافة والشعر: المعركة نفسها

منذ البداية، وارتبط شعر الرصافي بمواقفه الوطنية، فهو الذي وقف مؤيداً بحماس لإعلان الدستور الثاني في عام ١٩٠٨... وبالتوازي مع كتابته الشعر راح الرصافي يكتب المقالات الصحافية مصراً على أن يكون تلاقياً تاماً بين نفسه الوطني الجريء كشاعر بل كذلك كباحث في تاريخ الدين من خلال كتابه «كتاب الشخصية المحمدية" الذي أثار في وجهه كثيراً من العواصف وتسبب له في مطاردات ورقابات قلصت من اهتمام الجمهور بشعره كم من قدرته على التأثير على هذا الجمهور، وفي هذا السياق لا بد أن نعود هنا إلى الإشارة إلى كتابته الصحافية التي وصلت في جرأتها إلى حد مطالبته بخلع السلطان عبد الحميد فور إعلان الدستور. ولكن الخيبة التي أصابت كافة المثقفين العرب إثر التحول التركي الذي طرأ على رجال جمعية الاتحاد والترقي بعد أن استتبت لهم السلطة، أصابت أيضاً معروف الرصافي الذي توجه، بعد فترة أمضاها في إسطنبول، إلى بيروت حزيناً خائب السعي فإذا بالاستقبال الذي يخص به هناك يثلج قلبه ويبعث الأمل في نفسه، خصوصاً أن بيروت أصدرت له في ذلك الحين ديوانه الأول، وأسهمت - كما أسهمت بالنسبة إلى كثر من الشعراء العرب الآخرين- في دفعه إلى الصف الأول بين أقطاب الحداثة الشعرية العربية. وبعد بيروت وبغداد، عاد الرصافي مرة أخرى إلى إسطنبول، لكن عودته هذه المرة لم تسفر عن خيبة، بل إنه سرعان ما انخرط في الحياة الفكرية والشعرية لعاصمة الخلافة، وراح يدرس اللغة العربية، إلى جانب كتابته المقالات السياسية، بعد أن وجد نفسه يتصالح مع جمعية الاتحاد والترقي إلى درجة أن ترشحه الجمعية ليصبح نائبا عن منطقة المنتفك في مجلس «المبعوثان". وهو ابتداء من تلك اللحظة بدأ يتخذ من المواقف ما تبين من خلالها تأييده الدولة العثمانية، حتى ضد الإصلاحيين العرب الذين وجد أسباباً كثيرة في برامجهم تدعوه لانتقادهم، لا سيما حين عقدوا مؤتمرهم في باريس، حيث كان يعي كما راح يقول بنفسه، «المطامع الفرنسية في المنطقة العربية" ويدرك أن باريس «لا تساير الأحرار العرب إلا قصد إثارة الفرقة بينهم وبين الدولة العثمانية".

سنوات حبلى بالتناقضات

ولقد جره ذلك الوعي إلى الوقوف ضد الثورة العربية مدافعاً عن الدولة العثمانية فيما بعد. ومن هنا يبدو من المنطقي أن نقول مع ناقدي الرصافي، إنه قد عاش بعد ذلك يتحسر على الدولة العثمانية، ما أثار عليه حنق الملك فيصل ومعظم السياسيين العرب، وجعله بعيداً عن الحكم حتى كان عام ١٩٢٨ حين نجح أصدقاؤه له في مصالحته مع الملك فيصل فرشح لعضوية مجلس النواب العراقي ليصبح نائباً عن بغداد ثم عن لواء الديلم. ولكن سرعان ما أصابت الرصافي صدمة قوية بانتحار صديقه رئيس الحكومة عبد المحسن السعدون الذي كان من صالحه من الملك فيصل. غير أن ذلك لم يدفعه إلى اليأس بل واصل تأرجحه بين العمل السياسي وكتابة الشعر طوال السنوات التالية التي كانت سنوات حبلى بالتناقضات، وبخاصة بالنسبة إليه هو شخصياً. فمرة نراه نائباً ومرة مطارداً في حياته ورزقه، وكانت خاتمته الحقيقية يوم أيد انقلاب رشيد عالي الكيلاني ليجد نفسه بعد هزيمة الانقلاب معزولاً سياسياً من جديد فلم يتوقف عن مهاجمة الإنجليز، وهو قضى آخر سنواته، وحتى رحيله عام ١٩٤٥ فقيراً معزولاً.

الحقيقة معها كان الثمن

غير أنه مع ذلك لم يستسلم لا لأقداره ولا لسخط كثر عليه فهو الذي قال في نص كتبه عام ١٩٣٣: «أصبحت لا أقيم للتاريخ وزناً، ولا أحسب له حساباً لأني رأيته بيت الكذب ومناخ الضلال ومتجشم أهواء الناس، إذا نظرت فيه كنت كأني منه في كثبان من رمال الأباطيل قد تغلغلت فيها ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة فيتعسر أو يتعذر على المرء أن يستخلص من طيش أباطيله ذرات شذور الحقيقة. ولئن أرضيت الحقيقة بما أكتبه لها، لقد أسخطت الناس علي، ولكني لا يضرني سخطهم إذا أنا أرضيتها، كما لا ينفعهم رضاها إذا كانت على أبصارهم غشاوة من سخطهم علي، وعلى قلوبهم أكنة من بغضهم إياي (...) أما سخط الناس من أجل أنني خالفتهم لوفاق (الحقيقة) وصارحتهم في بيانها جريأ على خلاف ما جروا عليه من عادات سقيمة وتقاليد واهية، فلست مبالياً به ولا مكترثا له..."

عن (اندبندنت عربية)

مذكرات محمود صبحي الدفتري عن تأسيس مدرسة (حقوق بغداد) سنة 1908

احمد مجيد الحسن

يُعد (محمود صبحي الدفتري) أحد رجال الإدارة والقانون والسياسة في العراق، عاصر العهد العثماني والملكي والجمهوري في ادواره الأربعة، وتولى أعلى المناصب في العهدين العثماني والملكي.

عاش فترتين حاسمتين من تاريخ بغداد وتاريخ العراق، فقد جاء الى هذه الدنيا اواخر القرن التاسع عشر وعبره الى القرن العشرين.
في سنة١٩٥١ اتصلت به كلية الحقوق في بغداد للحديث عن ظروف تأسيسها وما رافق ذلك من حوادث وأمور، لأنه أول منتم الى مدرسة حقوق بغداد١ التي افتتحت سنة ١٩٠٨ في زمن الوالي العثماني (ناظم باشا)٢، وقد دونت حينها نقلا عنه، على أمل نشرها في دليل الكلية الذي سيصدر في ذكرى تأسيسها، الا أنها لم تنشر.
في أيلول ١٩٦٠ اتصلت جريدة الاهالي٣ العراقية بالسيد (الدفتري) ليحدثهم عن تأسيس كلية الحقوق العراقية، بمناسبة مرور (٥٢) سنة على تأسيسها ، لأنه عاصر تأسيسها، وعلى علم بظروف تأسيسها، ولأنه أول من سجل فيها، فعلمت الجريدة منه أنه سبق وان زود كلية الحقوق بتلك المعلومات سنة ١٩٥١، فاستطاعت الجريدة الحصول عليها ونشرتها في ثلاث حلقات جريدة الأهالي البغدادية .
ولمرور زمن طويل على نشرها، ورداءة طباعة الجريدة وورقها السريع التلف، وصعوبة الوصول اليها وتعرض مجلد الجريدة المحفوظ في (دار الكتب والوثائق) الى التلف بمرور الزمن، ابادر الى نشرها كاملة.
وقد عملت على تحقيق المذكرات فضلاً عن تصحيح الأخطاء المطبعية وغيرها وشرح ما يحتاج الى شرح، والتعريف بالأعلام والأماكن والحوادث بصورة موجزة في الهوامش.
وبهذه المناسبة أود ابين أنى كنت أتمنى لو أن السيد (الدفتري) كان قد دون آراءه وملاحظاته أو مذكراته بصورة عامة عن معظم ان لم اقل جميع الاحداث والأوضاع التي عاصرها وشارك فيها لمدة تزيد على نصف قرن، لاسيما أنه تولى مناصب عليا مهمة كوزارة العدلية والخارجية والمالية وعضوية المجلس النيابي والاعيان في العهد الملكي، فضلاً عن الوظائف التي تسنمها في العهد العثماني، لكان قد ترك لنا ثروة علمية وتاريخية لا مثيل لها، قياسا على:
١. ما أفاد به عند تدوين ذكرياته عن تأسيس مدرسة حقوق بغداد، لما فيها من دقة وصدق في سرد الاحداث وتحليلها، على الرغم من مرور مدة طويلة على أحداثها.
٢. ما سرده من أحاديث وذكريات لجلاسه في (ديوان الدفتري) عن سلاطين آل عثمان الذين عاصرهم أو الماضيين التي كانت اشبه بالمحاضرات التاريخية، كحضوره على سبيل المثال تشييع السلطان (محمد رشاد الخامس) وتنصيب أخيه السلطان (محمد وحيد الدين السادس) في قصر يلدز المنيف وما كان يردد اثناء تنصيب السلطان من قول (أيها السلطان انت عظيم ولكن الله أعظم منك. أيها السلطان انت عظيم ولكن الله أعظم منك) وما يعنيه هذا القول من حكمة وعظة. وكذلك ما رواه عن ولاة بغداد - لأن معرفته بهم لا يدانيه فيها مدان - الذين عاصرهم وعمل معهم أو الذين سبقوه.
وعن الادباء الاتراك الذين وثقت معرفته وعلاقته بهم سواءً في إسطنبول أم في بغداد، وغيرها من المعلومات والأحاديث المهمة والطرائف عن تلك الحقبة من الزمن، التي أورد بعضها (مير بصري)٤ في كتابه اعلام التركمان والادب التركي في العراق الحديث٥ ، وأغلب الظن أن (مير بصري) قد دون تلك الذكريات في حينه عندما رواها (الدفتري) في مجلسه أو التي سمعها منه شخصيا خارجه٦ لأنها حوت من المعلومات والتواريخ التي لا يمكن الإحاطة بها بعد مرور السنين دون تدوين، والتي قال عنها "هذا غيض من فيض من ذكريات الدفتري وروياته، ولو شئنا تدوينها جميعاً لملأنا مجلدات ضخمة".
٣. ما سرده من أحاديث وذكريات لجلاسه في (ديوان الدفتري) عن سلاطين آل عثمان الذين عاصرهم أو الماضين التي كانت اشبه بالمحاضرات التاريخية، كحضوره على سبيل المثال تشييع السلطان (محمد رشاد الخامس) وتنصيب أخيه السلطان (محمد وحيد الدين السادس) في قصر يلدز المنيف وما كان يردد اثناء تنصيب السلطان من قول (أيها السلطان انت عظيم ولكن الله أعظم منك. أيها السلطان انت عظيم ولكن الله

وذكرياته عن الحوادث التي مرت به لاسيما في العهد العثماني فقد سرد بوصف دقيق كيف ينصب ولاة بغداد عند صدور (الفرمان الهمايوني) اي المرسوم السلطاني بتوليتهم يوم كانت بغداد ولاية تابعة للسلطان العثماني في إسطنبول، بذاكرة صافية نقية اثارت دهشة الصحفي لأنها تصدر عن شخص ناهز التسعين من عمره. ووصف حالة بغداد في أواخر العهد العثماني وما كانت عليه من تخلف في نواحيها المختلفة. وكما قلنا سابقاً كلها رواية شاهد عيان لم ينقلها عن غيره.
وبناء على ذلك فاني اكرر القول لوكان (الدفتري) قد دون مذكراته، لاسيما وهو يحتفظ بذاكرة مازالت طرية ومتوهجة، وهو اديب متمكن كما نقل عنه، لترك للمكتبة ولدارسي تاريخ العراق في نهاية العهد العثماني والقرن العشرين مادة غنية تسهم في اضاءة احداث تلك الحقبة الزمنية.
فهو صورة حقيقية للماضي القريب الذي لا يعرف من اسراره ابناء هذا الجيل سوى النزر القليل.
وختاماً يجب أن نقر بفضل (بصري) و(العرداوي) عندما حفظا لنا تراث (الدفتري) المروي، وبفضل كلية الحقوق في بغداد ثم جريدة الأهالي اللتين استخرجتا هذه المعلومات القيمة من مكامنها.

أهمية المذكرات

لمذكرات (الدفتري) أهمية كبرى في معرفة ظروف تأسيس مدرسة حقوق بغداد سنة ١٩٠٨، لأن صاحبها هو أول من انتمى الى المدرسة وكان شاهد عيان على تأسيسها، بل على مرحلة ما قبل تأسيسها لأنه كان موظفا في مكتب (ناظم باشا) والي بغداد ومؤسس المدرسة،
فلقد جاء في مذكراته، أنه تحدث عن تأسيس المدرسة تحدث المطلع على تفاصيل الأمور، وأن مبعث ذلك اشتغاله في مكتبه في الهيأة الإصلاحية، من يوم تسلم الباشا مهام الولاية بالوكالة الى مغادرته العراق أي نحو ثلاثة أشهر، أي أنه يروي ما رأته عيناه دون نقل عن الآخرين.
ولم تقتصر المذكرات على ذلك، بل رأيناه يرسم صوراً قلمية ناطقة عن بدء الدراسة في مدرسة الحقوق وتطورها وكيفية أداء امتحاناتها واحتفاء الأهالي بتأسيسها.
وتزداد المذكرات أهمية لأننا من خلالها نتمكن من دراسة أحوال العراق السياسية والإدارية والتعليمية في العراق في مطلع القرن العشرين، لان (الدفتري) تحدث حديث العارف عن الإدارة في العهد العثماني وكيفية سير الأمور في دواوينها.
فترجمته مثلا لـ(ناظم باشا) والي بغداد، كانت ترجمة وافية لا تجدها في مصدر آخر، لاشتغاله معه في بدء حياته الوظيفية كما مر بنا سابقاً، ولقربه منه.
ويلاحظ في المذكرات الذاكرة الفائقة (للدفتري) في سرد الحوادث على الرغم من مرور ما يقارب نصف قرن على احداثها وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح، فقد أورد في مذكراته حفل افتتاحها بالتفصيل الدقيق وأورد أمورا وحوادث تفصيلية عن سير الدراسة فيها ومحاولات والي بغداد (جمال باشا) لإغلاقها وموقف الطلبة والأهالي للحيلولة دون ذلك، مع ملاحظة الدور المحوري (للدفتري) في كل ذلك.
إن موقف أهالي بغداد ومن ورائهم العراقيون من استمرار المدرسة والحيلولة دون غلقها، يبين رغبتهم الصميمة في اللحاق بركب الحضارة وإعادة امجاد بغداد التي أصغى لها ولعلمائها الدهر.١١
إن الموقف الصلب لطلاب مدرسة الحقوق وهم في أول مرحلة الشباب تثير الاعجاب والعجب، لأنهم تحدوا الوالي العثماني (جمال باشا) في عقر مكتبه، على الرغم من العنجهية والقسوة المفرطة التي عرف بها، وأسوأ مثال على ذلك تعليقه عدد كبير من أحرار الشام على اعواد المشانق دون رحمة أو رأفة.
ويجب أن يلاحظ أن هذه المعلومات لم ترد في أي مصدر آخر، لولا بقاؤها في ذاكرة (الدفتري) التي دونت عنه سنة ١٩٥١.
ومما يزيد من قيمة المذكرات حضور الصحفي والاديب (روفائيل بطي)١٢ جلسة تدوين المذكرات وتساؤلاته مع (الدفتري) عن بعض الأمور المهمة، وترحيب (الدفتري) بحضوره وعده مشرفاً على ذلك، لأنه أحد مثقفي وادباء بغداد فضلاً عن كونه من خريجي مدرسة الحقوق، وإن كان بعد مدة من تأسيسها. ومما يجدر ذكره ان معظم المعلومات التي وردت في المذكرات قد انفرد (الدفتري) بإيرادها ولم ترد في مصادر أخرى، لأنه كان معاصرا لها ومشاركا فيها كما قلنا في أحيان كثيرة، وبذا تزداد أهميتها.
إن البحث في تاريخ مدرسة حقوق بغداد وتأسيسها، هو أمر لازم لمعرفة الاصول الحقيقية لنشأة التعليم العالي في العراق في العصر الحديث، وان الاستفاضة في سرد تفاصيلها هو لتبيان معاناة العراقيين ورغبتهم تملك ناصية العلم، ومذكرات (الدفتري) هي خير معبر عن ذلك.

من مقدمة المذكرات التي سننشر بعض فصولها في ملحقنا .

الملا عثمان الموصلي واغنية (الروزنه)

د . ليندا حجازي

ذاكرة

من إبرز الشخصيات الموسيقية التي تتلمذت على يده، سيد درويش من مصر والذي بدوره حوّل تلك الاعمال من أغاني دينية في نصوصها الى أغاني دنيوية مع الاحتفاظ بالألحان الاصلية للملا عثمان الموصلي جملة وتفصيلًا، التي تميزت بفطرة الموسيقى عربيّة التلقائيّة. فضلاً عن دور تلامذة الملا عثمان أمثال (عمر البطش، أبا خليل القباني) والعديد من أعلام الموسيقى العربية من مصر وحلب والعراق الذين اسهموا في انتشار الحان الملا عثمان في كافة أقطار البلاد العربية.

هـذا وقد لاقـت الحان المـلا عثمـان استحسـان الباب العـالي في الآسـتانة (تركيـا) حيـث اسـتطاع بذكائه وموهبـة الفطريـة، أن يترك اثـراً جلياً في الموسـيقى التركيـة التـي استقبلـت واحتضنـت اعمالـه الدينية منها والدنيويـة، فكان محل تقدير واحترام موسيقيي عصره في عاصمة الدولة العثمانية (الآستانة) والبلاد العربيـة. يستعرض البحث توثيقـاً لأهم الاعمال التي لحنهـا الملا عثمـان الموصلـي والتي نسبـت لغيره من الملحنين العرب والأجانب، أما بسبب الحفظ والتواتر ومرورها ببلاد عربية من خلال المشـاهير من ملحنيها الذيـن تتلمـذوا علـى يد المـلا عثمـان، او بسـبب عدم شـيوع ضـرورة حفـظ الملكيـة الفكرية في عصـر الملا عثمان الموصـلي، يتطرق البحـث الى تحليل مجموعة مـن اشـهر أعمـال الملا عثمان الموصـلي، حيـث خلص البحث الى تـداول تلاميذه من الملحنين من كافة الدول لألحانه ، كما وردت عنه، دون أي تغيرات لحنية، فكان التغير الأبرز في تحول الكثير من نصـوص الحانه من نصوص دينية الى دنيوية.

حكاية "الروزنة"

تحتفـي العديـد من المـدن العربيـة بأغنيـة "الروزنة" ولـكل منها رواية خاصـة بهـا عنها، ولا يظهـر في أي مرجع اسـم غير الملا عثمان الموصـلي ملحناً لها. تغنى في العراق، وسـورية، ولبنان، وفلسـطين. وأشهر من غناها فيروز وصباح فخري، وقبلهما أداها قارئ المقام أحمد موسى مع فرقة الجالغي البغدادي.

ومما ذكر الباحث والمؤرخ العراقي سيار الجميل في مقـال "مـن أغنية زوروني الى أغنيـة عالروزانة"، المنشـور على موقعه في ٢٣ شـباط/فبراير ٢٠٢٠ عن تأصـيل أغنيـة "عالروزنـة" أنه قيل عنهـا الكثير، لكن الحقيقـة تقول إن صـاحب كلمات الأغنيـة هو عبدالله راقـم أفندي الموصـلي متوفى في الموصـل (١٨٩١م)، ولحنها لـه صـديقه الموسـيقار الملا عثمان الموصـلي، وخلال ترحال الموصـلي انتقلت الأغنية إلى بلاد الشام ومصر.

و"عالروزنة" تحكي قصـة عاشقين كانا يلتقيان خلسة وراء الروزانـة "فتحـة تطـل على الشـارع في البيوت القديمـة"، لكـن أهل الفتـاة أغلقوا الروزانـة، فارتحل العاشـق إلى حلـب، وكانـت قصـيدة راقـم أفندي عن العاشقين.

نشـر الجميل نص الأغنية كما وردت في الصفحة ١٣٣ من مخطوط ديوان عبدالله راقم أفندي:

عالروزانا عالروزانا روح الهنا فيها احلف يمين الهوى نرجّع لياليها

ويـن اللي حبّوا قلبي ووين اللي عنو مالو تاركلي الهم حبيبي وهو مرّيح بالو

يامن يردو جوابو او يبعت سـؤالو نستحلي كلمي قلو يفهم معانيها

ياولفي خـدني من هجرك يكفاني غيرك وحيات الهوى مالي حبيب تاني

اشون ترتاح فكاري ودموعي بأجفاني والنوم مجافي عيوني وعاش السهر فيها

عالروزنـة عالروزنة كل الهنا فيهـا وش عملت الروزنة الله يجازيها

يـا رايحين لحلب قلبـي معاكم راح يـا محملين الرطب تحت الرطب تفاح

كل مـن وليفـه معو وانـا وليفي راح يا رب نسـمة هوا ترد الولف ليا

لاطلـع عـا باب الجسـر واحدو مـع الحـادي واقول يا مرحبة نسّم هوى بلادي

يا رب يغيب القمر لأقضـي أنا مرادي وتكون ليلة عمر، والسرج مطفية

ويتابـع الدكتور الجميل: هذه الأغنية مكتوبة باللهجة العامية الموصـلية، وقـد جرت بعـض التبديلات فيها، فقد تغيرت كلمة "الرطب" العراقية إلى كلمة "العنب"، وتغيـر "وش عملـت الروزنـة" إلى "شـو عملـت"، وتحولـت "قلبـي" إلى "حبـي"، وتبدلـت "عـا بـاب الجسـر" إلى "عـا راس الجبل" وتغـيرت "واحدو مع الحـادي" إلى "واشـرف على الـوادي". وتبدلت "ليلة عمر" بـ "ليلة عتم" إلخ.

أمـا ما نسـج من حكايات أخـرى من قبيـل أن الروزنة اسـم لسـفينة إيطالية أو غـير ذلـك، وأن الأغنية تعبّر عن تضـامن تجار حلب مع أهل بيروت في زمن مجاعة مزويـن إياهم بالقمـح مخترقين الحصـار العثماني، أخذين بـدلاً عنه التفاح وقد وضـعوه تحت العنب كي لا يكتشف أمرهم. فحكايات لا أساس لها من الصحة.

عن (مجلة الموسيقى العربية)

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (6104) السنة الثالثة والعشرون -
الاثنين (9) آذار 2026

www.almadasupplements.com

رئيس التحريـر التنفيذي: علـي حسـين

سكرتير التحرير: رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون